

أمومة اللغة العربية في الجزائر "من المنظور التاريخي إلى المدلول الاجتماعي"

د. بولرياح عسالي

جامعة الجلفة

مقدمة:

بصدد التأكيد على العلاقة الوثيقة التي تربط الجزائر باللغة العربية، وتسليط الضوء على ارتباطها التاريخي وإرثها الحضاري في هذا الشأن، نهدف بالدرجة الأولى في هذا المقام إلى التركيز على المدلولات الاجتماعية تلك العلاقة، وفقا لسياق تسلسل أحداثها التاريخي.

حيث يعتقد البعض⁽¹⁾ أنه مهما قدّمنا من إجابات عن التساؤلات حول العلاقات الموجودة بين اللغة الأمازيغية واللغة العربية، فإنها تبقى غير كافية ولا تشفي الغليل، وتتسم بالنسبية والتقريب والتخمين والافتراض، لانعدام الأدلة العلمية الحقيقية، وغلبة الهوى والذاتية والإيديولوجيا على الباحثين الذي يخوضون في هذا المضمار. لذلك سوف نحاول عرض أهم الآراء المتعلقة بالموضوع، محاولين الترجيح بينها بما يخدم موضوعنا.

أولا : ساكنة الجزائر وأصل اللغة :

هناك من يعتقد أن البربر من أصل هندي أوروبي، وأن جذورهم متصلة بيافت بن نوح عليه السلام، خرجوا في عصور متقدمة من الهند ومروا بفارس ثم بالقوقاز، واجتازوا شمال أوروبا من فنلندا إلى اسكندينايا ثم بريطانيا الفرنسية ثم إسبانيا، ويستدلون على ذلك بالمعالم الميغاليينية أو معالم الحجارة الكبرى من المصاطب والمسلات والمستديرات التي بثوها على طول هذه الطريق، وهي توجد بشمال أفريقيا وتنتهي بالمضيضة. كما يستدلون بأسماء قبائل الكيماريين بفرنلندا والسويد وبني عمارة في المغرب وخميس بتونس فالأسماء متشابهة جدا؛ أو بالحرف الروني المنقوش على المعالم الميغاليينية فإنه يشبه الخط اللوبي المنقوش على الصخور بشمال أفريقيا ولبعض الخصائص البشرية كبياض القوقازي وزعرة الشعر المتصف بها الشماليون⁽²⁾.

بينما يذهب آخرون⁽³⁾ إلى اعتبار السكان الأمازيغ أفارقة منذ القدم، وأنه من العبث البحث عن موطن أصلي لهم، غير الموطن الذي نشأوا فيه منذ مايقرب من مائة قرن. وأنه من يتكلف ذلك البحث

(1) د. جميل حمداوي، اللغة الأمازيغية واللغة العربية : مواطن الاتصال والانفصال في :

<http://www.doroob.com/?p=27042> تاريخ الاطلاع: 03 أبريل 2012

(2) عثمان الكعاك، البربر، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2003، ص 58.

(3) محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، الرباط، دار الكلام، 1989، ص 20.

يستوجب أن يطبقه على نفسه في التماس موطن أصلي للصينيين مثلا، أو لهنود الهند والسند، أو لقدماء المصريين، أو لليمانيين أنفسهم وللعرب كافة، ليعلم من أين جاؤوا إلى جزيرة العرب.

وفي المقابل؛ ذهب العديد من الباحثين والمؤرخين⁽¹⁾ إلى تأكيد أن البربر⁽²⁾ من أصل سام هاجروا من جنوب الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا، وأنه من الخطأ الشائع اعتقاد عجمة المغرب العربي قبل دخول الإسلام، وأن ذلك مردود تاريخيا، كون الكنعانية دخلت مع الفينيقيين الذين أسسوا مدينة قرطاج سنة 814 قبل الميلاد، حيث تحولت إلى بونيقية اتحدت هويتها مع العامية المغربية الحالية، وتثبت ذلك دراسات وأبحاث باللغتين الإنجليزية والاسبانية عن كتابات حجرية عثر عليها في بلاد البرازيل تحمل تاريخ 125 قبل الميلاد؛ الفترة التي توافق رحيل الفينيقيين عبر المحيط الأطلسي إلى جنوب أمريكا غداة هدم قرطاج سنة 146 قبل الميلاد⁽³⁾، وفي هذا يقول بن خلدون: « والحق الذي لا ينبغي التعميل على غيره في شأنهم (أي

(1) عثمان الكماك، مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1958، ص 38 و 39؛

د. إبراهيم أحمد العدوي، المجتمع المغربي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1970، ص 22؛

علال الفاسي، محاضرات في المغرب العربي، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1955، المقدمة؛

د. حسن ظاظا، كلام العرب في قضايا اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الدراسات اللغوية مصر، 1971، ص ص

57- 59؛

عن د. أحمد بن نعمان، التعريب بلين المبدأ والتطبيق " في الجزائر والعالم العربي"، ص 139؛

عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العجم والعرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر، المجلد السادس، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1968، ص 191؛

أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص

95- 99؛

ليون الأفريقي، محمد الأخضر ومحمد حجي (مترجمان)، وصف أفريقيا، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب

الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983، ص 35؛

د. جميل حمداوي، المرجع السابق.

(2) يفضل بعض الباحثين إطلاق مصطلح أمازيغ على البربر، ذلك أن الأول يعني الرجال الأحرار النبلاء، بينما أطلق

الرومان والإغريق تسمية البربر على الرافضين لحضارتهم، وهي مشتقة من البرابرة الجرمان الذين كانوا يهددون

الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وتمكنوا من اختراق حدودها والسيطرة على جزء كبير منها، ووصل أحد

شعوبهم إلى شمال إفريقيا مع الوندال، وإنما أطلق المسلمون تلك التسمية على سكان الأرض التي يأملون فتحها والتي

قيل لهم بأنهم بربر نسبة إلى البرابرة الوندال، للتفصيل أنظر: د. مصطفى أعشى، " الثقافة الأمازيغية بين الماضي و

الحاضر"، المؤتمر الدولي: اللغة والثقافة في إفريقيا، قسم اللغات معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة،

القاهرة، 27- 28 أكتوبر 2001، ص 88 و 89.

(3) عبد العزيز بن عبد الله (مناقش) في د. محمد منجي الصيادي، " التعريب في الوطن العربي"، ندوة: التعريب ودوره في

تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، تونس، 23- 26 نوفمبر 1981.

البربر)؛ إنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح؛ كما تقدم في أنساب الخليفة. وأن اسم أبيهم مازيغ، وإخوتهم أركيش، وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحييم بن مصريم بن حام»⁽¹⁾.

فلقد أثبتت أغلب الدراسات والآراء عروبة البربر منذ القدم، وأن لغتهم المستعملة في جميع أغراضهم اليومية والفكرية ولهجاتهم المتنوعة تعود إلى أصول "سامية" عربية قديمة تثبت هذا الانتماء⁽²⁾، كما أن التركيب اللغوي للهجات البربرية معنىً ونحواً وتصريفاً يقترب من اللغة العربية، ويخضع لنفس نظام اللهجات العربية التي ما هي إلا تشويه للفصحى تحت ضغط عوامل تاريخية وجغرافية كالعزلة وطول الأمد⁽³⁾.

ويؤكد موقف الكاهنة وابنها كسيلة عروبة البربر، بحيث تصورت العرب غزاة مثل الرومان فحاربته⁽⁴⁾، وعندما احتكت بهم في أول معركة واجهتهم فيها - بمسكيانة - اكتشفت أصل قومها ولغتها فيهم، ووجدت تطابقا كبيرا بين عاداتهم وعادات قومها وتشابها بين لهجتيهما⁽⁵⁾، ناهيك عن أن روح البربر قريبة جدا من روح العرب، على أن يقاس حضريو أولئك وبدويهم بحضري هؤلاء وبدويهم⁽¹⁾.

(1) عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر.

(2) د. عثمان سعدي عن د. أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية: الخلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل، الطبعة الثانية، الجزائر، دار الأمة، 1997، ص 69.

(3) د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر آنف الذكر.

(4) د. عثمان سعدي، التعريب في الجزائر " كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكوفونية"، الجزائر، دار الأمة، 1993، ص 200.

(5) فقد اعتبر الكثير من الباحثين لهجة البربر أحد صنوف اللهجات العربية القديمة التي بقي استعمالها بالمغرب ومصر وحضرموت حتى الآن، ومن أهم من يقول بمثل هذا من أوردتهم د. عثمان سعدي في كتابه المشار إليه أعلاه، ص 202 و203 على النحو التالي :

- الباحث الفرنسي المتخصص في البربرية "أندريه باسيه" Basset : " إن عدد اللهجات البربرية خمسة آلاف لهجة تقريبا، وكلها مضروبة Frappés بالطابع العربي " ؛

- المؤرخ الأمريكي "وليام لانغر" : " وتتصل اللغة المصرية القديمة واللغات السامية ولغات البربر بأصل واحد " ؛

- المؤرخ الفرنسي "غوستاف لوبون" : " إن لغة البربر العريقة في القدم يحتمل ان تكون مشتقة من الفينيقية " ؛

- الباحث الألماني "روسلر" : " إن اللغة النوميديّة لغة سامية، انفصلت عن اللغات السامية في الشرق في مرحلة مغرقة في القدم، ثم تطورت بعد ذلك في اتجاه خاص جعلها تبدو مختلفة عن باقي اللغات السامية " ثم يؤكد التشابه بين البربرية والعربية ؛

- العالم الأمريكي "غرينبرغ" الذي يشير في كتابه لغات إفريقيا إلى الكثير من الصفات المشتركة بين العربية والبربرية في البنية اللغوية والنحوية والصرفية ؛

- وورد في الموسوعة الفرنسية Universalis في تحرير مادة (بربر) : " إن اللغة البربرية في استعمالها الحالي هي امتداد لصيغ اللغة العربية.. وإن الآداب البربرية الهزيلة الشفوية البحتة، تتكون من أساطير من الحيوانات، ومن قصص خرافية، وأغانٍ تقليدية أو مرتجلة، والواضح فيها كلها أنها مستمدة من المشرق العربي " .

كما أورد د. بن نعمان في كتابه كيف صارت الجزائر مسلمة عربية، ص 15 عن R.Dssaud المتخصص في اللغات السامية و S.Gsell الضليع في تاريخ شمال إفريقيا القديم بأن هناك عناصر حضارية بربرية أساسية خاصة

وفي نفس السياق وبعد احتلال منطقة القبائل سنة 1857؛ جمع المترجم العسكري " ألفونس مايير" معلومات استقاها من أفواه شيوخ المنطقة ⁽²⁾ ما خلاصته أنهم يعتقدون أن أصلهم عربي ما عدا قبيلة واحدة (فراوس وإيجروغوبري) التي يقال أنها فارسية.

وللتأكيد على صحة هذا الأمر يعتقد البعض ⁽³⁾ أنه لم يكن لفرنسا - حين نشر ضابطها تلك الشهادات - أي مصلحة في ذلك، بل العكس هو الصحيح؛ حيث يوجد ضرر لمصالحها باعتبارها بلدا محتلا من مصالحته إثارة التفرقة والشقاق ليبسط هيمنته ويشدد قبضته على المنطقة.

كما حاول الكثير من المؤرخين العرب الأوائل تعليل ما لاحظوه من الأواصر بين المشرق والمغرب، بالرجوع إلى الأصول العرقية المشتركة، وأوردوا نصوصا تؤيد ذلك؛ معتبرين سكان المغرب أو بعضهم على الأقل، ينتمي إلى موطن أصلي في الشرق، لكنهم اختلفوا حول المنطقة التي انطلق منها هؤلاء المشارقة المتغربون، فرأى بعضهم أنها جنوب الجزيرة العربية، بينما ذهب آخرون إلى أنها الشام، ووقف البعض الآخر بين الوجهتين؛ فرأى بأن منهم من أتى من اليمن واختلطوا بالشاميين ثم انتقلوا إلى المغرب ⁽⁴⁾.

وفي محاولة توفيقية يذهب البعض ⁽⁵⁾ إلى القول بالأصل المزدوج للبربر، بحيث يعود إلى سلالتين؛ الأولى هي الهندية الأوروبية التي نزحت إلى إفريقيا من آسيا ثم أوروبا على الطريق الذي ذكرنا، أما الثانية فهي السلالة السامية بالطريقة التي فصلنا، ثم التقت السلالتان بالمغرب، وهذا ما يفسر لنا اختلاف الخصائص البشرية عند البربر في السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات، وهو ما يفسر أيضا الخلاف القائم بين مصمودة وصنهاجة.

وبقطع النظر عن الأصل العرقي للبربر والأمازيغ، فإن ما يهم إثباته هو أن هؤلاء السكان لم يعرف لهم التاريخ قبولا لدخيل بالقوة والإكراه أو الاندماج فيه، والدليل على ذلك مقاومتهم العنيفة وثوراتهم المستمرة ضد الغزوات المتعاقبة التي تعرضوا لها في القديم والحديث، بدءا بالفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين والأسبان ثم الفرنسيين، غير أن تقبلهم للإسلام أظهر شيئا آخر، فقد أبدوا مقاومتهم

منها اللغة الآتية من آسيا الصغرى عن طريق منخفض مصر (الدلتا) حملتها بعض الأقوام التي ساقتها الهجرة عبر عصور قديمة يصعب تحديدها .

(1) نقلا عن غوستاف لوبون : أنور الجندي ، المرجع السابق ، ص 90 .

(2) ألفونس مايير ، " أصل سكان بلاد القبائل حسب العرف المحلي " ، **المجلة الإفريقية** ، 1859 ، ص 357 ، عن د.أحمد بن نعمان ، المصدر آنف الذكر ، ص 19 .

(3) د.أحمد بن نعمان ، نفس المصدر ، ص 26 .

(4) د.محمد بشير الشنيني ، **الصلة بين المشرق والمغرب قبل الإسلام** ، الجزائر ، المعهد الوطني للدراسات الإستراتيجية الشاملة؛

د.حسين رئيس ، " جذور افشكالية الثقافية في المغرب " ، شؤون عربية ، العدد الثلاثون ، 1983 .

عن د.أحمد بن نعمان ، **كيف صارت الجزائر مسلمة عربية** ، الطبعة الثانية ، الجزائر ، دار الأمة ، 1997 ، ص 14 و 15 .

(5) نقلا عن عثمان الكعاك ، المرجع السابق ، ص 59 و 60 .

المعتادة أول الأمر، واستبسلا في صدهم عن الديار، بحيث ذهبت ضحايا من الطرفين من بينها استشهاد قائد الفاتحين (عقبة بن نافع) ومصرع قائدة المقاومة (الكاهنة)، وعوضا على أن يزيد ذلك من تأجج ثأرهم، فإن العكس هو الذي حدث؛ بحيث دخلوا في الدين الجديد أفواجا - بعد أن تأكدوا من الأهداف النبيلة للفاتحين- بل وأكملوا مسيرة الفتح جنبا إلى جنب معهم، إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس، ليس باعتبارهم جنودا فحسب؛ بل باعتبارهم أكثرية قوية، وبرز فيهم قادة مبدعون أمثال طارق بن زياد⁽¹⁾.

ثانيا : الفتح الإسلامي والوضع اللغوي :

حيأت الفتوحات الإسلامية للغة العربية سبل الانتشار في بلاد المغرب، كونها لم تتم بدافع التوسع وتغليب جنس معين، بل بدوافع دينية وإنسانية وحضارية بحتة تتلخص في تبليغ الرسالة ونشر هذا الدين للعالمين، فكان من الطبيعي أن يحدث هذا التلازم بين العربية والإسلام كونها لغة القرآن ولغة المبشرين برسائلته⁽²⁾.

وبالرغم من اختلاف آراء الباحثين حول نوايا الفاتحين العرب لبلاد المغرب عموما، فإنهم يجمعون على أنها تمت بسهولة مذهلة ونجاح كامل، ناهيك عن تميزهم بأخلاق راقية فرضت قبولا وارتياحا لدى السكان الأصليين، فقد نقل بعضهم⁽³⁾ عن أحد المستشرقين قوله : « إن العرب يعدون من أقدر الشعوب على الاستعمار، فهم لم يعلوا فوق الشعوب التي حكموها ولم يستكبروا، بل عدوهم مثلهم وخالطوهم بالعشرة والمصاهرة والمعاملات الاقتصادية، وكل من أسلم منهم صار أخا، لا فضل لآخر عليه، ومن الطبيعي أن يدخل الناس في الإسلام في تلك الأيام وأن يتعلموا العربية، ويتعربوا ويهضموا عادات الفاتحين وأخلاقهم، ويصبحوا جزءا من أفراد تلك الإمبراطورية، ولم يوفق اليونان ولا الرومان ولا الأوروبيون في العصر الحديث إلى هضم الشعوب بتلك المرونة والسهولة والسرعة » .

فقد شكل الفتح الإسلامي للمنطقة عام 647 م بداية تحولات جذرية، بحيث تم اندماج كافة الهياكل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في بوتقة الحضارة الإسلامية⁽⁴⁾، وانصهر البربر والعرب في المجتمع الإسلامي العربي الجديد، وزال بذلك كل ما يمكن أن يفرق بين العنصرين، فهاهو بن باديس⁽⁵⁾ يصف الوضع آنذاك بقوله: « إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ (البربر) قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر

(1) د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 15 و 16 .

(2) مدثر عبد الرحيم (معقب) في د. محمد المنجي الصيادي، " التعريب في الوطن العربي "، ندوة : التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، تونس، 23- 26 نوفمبر 1981، ص 45 .

(3) مصطفى الشهابي، الاستعمار، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1956، ص 136 .

(4) يحيى عبد المبدى محمد (مترجم)، " البعد الثقافي في أزمة أمازيغ الجزائر "، أفاق إفريقية، القاهرة، المجلد الثاني، العدد 07، خريف 2001، ص 121 .

(5) للعلم فإن أهم الشهادات على انتماء البربر للعرب وشدة تلاصقهما صادرة عن باحثين هم أصلا من البربر؛ كالشيخ عبد الحميد بن باديس المنحدر من صلب قبيلة صنهاجة التي هي من أعرق القبائل البربرية بالجزائر، ود. أحمد بن نعمان ابن منطقة القبائل الأحرار، ود. عثمان سعدي أحد أبناء الشاوية الأشاوس .

قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدتهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً أمه الجزائر وأبوه الإسلام⁽¹⁾.

كما يقول في موضع آخر: « ما من نكير أن الجزائر كانت أمازيغية، من قديم عهدها، وما من أمة من الأمم استطاعت أن تقلبها عن كيانها، ولا أن تخرج بها عن أمازيغيته، أو تدمجها في عنصرها، بل هي التي كانت تبتلع الفاتحين فينقلبوا إليها، ويصبحوا كسائر أبنائها، فلما جاء العرب، وفتحوا الجزائر فتحا إسلامياً، لنشر الهداية - لا لبسط السيادة - وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس، لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، وتعلموا لغة الإسلام العربية، طائعين فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجال العلم، وشاطروهم سياسة الملك، وقيادة الجيوش، وقاسموهم كل مرافق الحياة ... فأقام الجميع - العرب والبربر - صرح الحضارة الإسلامية يعبرون عنها وينشرون لوائها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان⁽²⁾.

ورغم أن تحول الأمازيغ إلى الإسلام كان أيسر من تحولهم إلى اللسان العربي خاصة في المناطق الجبلية المعزولة⁽³⁾، إلا أن السرعة التي أقبل فيها البربر على العربية كانت مذهلة، وأصدق دليل على ذلك؛ خطبة طارق بن زياد الشهيرة باللغة العربية البليغة، رغم أن تشكيلة الجيش آنذاك - سنة 92 هـ - كانت تضم أغلبية بربرية.

ويعزي البعض⁽⁴⁾ تلك السرعة - إلى جانب سماحة الإسلام الذي شكل رغبة شديدة لدى البربر في تعلم العربية - إلى حرص العرب على تعليمهم لغة القرآن، بإنشاء معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد، كانت بمثابة الكتاتيب يتعلم فيها التلاميذ القرآن وعلوم الحديث ومبادئ الفقه واللغة، وتبني البربر فيما بعد ذات الوسيلة. كما اعتبرها آخرون⁽⁵⁾ إشباع رغبة لدى البربر نتيجة مركب نقص تجاه الفاتحين؛ دفعهم إلى مضاهاتهم، بل والتفوق على العرب أنفسهم في اللغة والفقه والشعر والخطابة والعلوم الإسلامية عموماً. وعموماً؛ فإن أسباباً عديدة ساعدت على تعجيل انتشار العربية في الجزائر، نذكر من أهمها:

(1) عن دراج تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، ص 52.

(2) عبد الحميد بن باديس، "كيف صارت الجزائر عربية"، مجلة الشهاب، قسنطينة، فبراير 1938.

(3) يحي عبد المبدى محمد (مترجم)، المرجع السابق، ص 121.

(4) د. أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق "في الجزائر والعالم العربي"، ص 140 و 140.

(5) عثمان الكعاك، مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1958، ص 70 و 71.

أهمية اللغة العربية في الجزائر من المنظور التاريخي إلى المدلول الاجتماعي

- دخول كافة سكان الجزائر في الإسلام بنهاية القرن الثامن ميلادي - الأول هجري - وهي ظاهرة قلما حدثت في البلاد الأخرى⁽¹⁾.
- عدم وجود لغة راقية تحمل من الثقافة والحضارة ما يمكنها من صد اللغة العربية، كما وقع في بلاد فارس، بحيث لم تكن اللغة البربرية تتجاوز التخاطب، ولم يكن لديها تراث مكتوب يحفظها، كما أن اللاتينية التي تعرفها نخبة قليلة من السكان كانت منحصرة في الدواوين الرسمية طيلة خمسة قرون⁽²⁾، كونها لغة محتل يناصرها الأهالي أشد العدا.
- عدم تعصب البربر للغتهم، وعدم تفرقتهم بين لغة الدين ولغة الحياة العامة، مثلما حدث مع الفرس والأتراك، رغم إتاحة الفرصة لهم فيما بعد - في عهد الدولة الرستمية، ودولة الأمير عبد القادر - لإمكانية تعزيز لغتهم⁽³⁾.
- اهتمام القادة العرب بالتعريب على المستوى الرسمي في الأمصار التي فتحوها، مما حتم على كل راغب في الوظيفة تعلم اللغة الرسمية للدولة أي العربية⁽⁴⁾، حرصا منهم على المشاركة في الحياة السياسية والإدارية، واعتبارهم اللغة العربية وسيلة فعالة لرفع مكانتهم الاجتماعية⁽⁵⁾.
- تشابه العربية والبربرية في النطق ومخارج الحروف ؛ وذلك لاختلاط البربرية بالفينيقية مدة طويلة وتأثرها بها، كون هذه الأخيرة لغة سامية مثلها مثل العربية وشبيهة بها إلى حد بعيد من جهة، واعتبار البربرية في حد ذاتها من أصل سام للأسباب التي أوردنا سابقا من جهة أخرى.

(1) د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 138 ؛

د. إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص ص 170 - 177 ؛

د. أبو الفتوح رضوان، القومية العربية، الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية، 1969، ص 35، عن د. أحمد بن نعمان، المصدر آنف الذكر.

(2) د. نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 20 و 21 ؛

محمد حسن، "الأصول التاريخية للتعريب في المغرب العربي"، المستقبل العربي، السنة السابعة، العدد الثاني والسبعون، فبراير 1985، ص 63 ؛

د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 138 و 139 ؛

د. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، مطبعة السلمي، ب.ت، ص 75 عن د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر ؛ كما عبر عن ذلك عبد السلام بلعيد ابن منطقة القبائل، الذي شغل عدة مناصب سياسية أهمها رئيس حكومة، في حوار لجريدة الشعب، يوم 1989/10/08.

(3) د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 140 .

(4) نفس المصدر.

(5) د. محمد بن عبد الكريم، "بحث حول البربرية"، جريدة الشعب، 29 مارس 1989 ؛

محمد حسن، المصدر آنف الذكر.

ولأن اللغة التي تتصل بدين من الأديان بهذه الصورة لتصير لغة الصلاة بين معتنقي هذا الدين، فإنها تكتسب امتيازاً على سائر اللغات فتزداد قوة عن قوتها الذاتية، وتحتل مكانة أرفع من مجرد المكانة اللغوية، وتمثل واحداً من أهم أسس بناء القوميات؛ ذلك أن الأديان تؤثر في القوميات من خلال تأثيرها في اللغات⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس ظل المسلمون في شمال إفريقيا، يشكلون عمقا متماسكا تكوّن بقيم الإسلام عبر قرون طويلة، فأصبح فيهم ديناً قومياً يستحيل انتزاعه، برغم قوة السلاح الذي حاول المستعمر فيما بعد استعماله⁽²⁾.

ومثلما كان الإسلام القوة الدافعة للفتوحات العربية؛ كان - ولا يزال - القوة الواقية التي أكسبها الحصانة والمناعة ضد مخاطر الانقسام والتشردم اللغوي⁽³⁾. فاستحق البربر بنوة الحضارة الإسلامية التي ساهموا في إقامة صرحها، دون تمييز أو تفرقة، وكونوا الأمة التي وصفها بن باديس بأنها لا تقوم على اتحاد الدم؛ بل تقوم على اتحاد القلوب والأرواح والعقول؛ اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والأمال⁽⁴⁾، مؤكداً على الامتزاج الحضاري بينهم بقوله : « وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف في إعلاء كلمة الله، وما أسألوا من محابرتهم في مجالس الدرس لخدمة العلم، فأى قوة بعد هذا القول تستطيع أن تفرقهم⁽⁵⁾ ».

ثالثاً : انتشار العربية في البلاد :

تعززت مكانة اللغة العربية مع التزاوج الحاصل بين العرب والبربر، وتداخل الأنساب بينهم؛ ابتداء من التعريب الرسمي للإدارة والدواوين الحكومية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان 65- 86 هـ الموافق لـ 687- 705 م، ونشوء المدن الجديدة على يد الفاتحين كالقيروان بتونس، وفاس بالمغرب الأقصى⁽⁶⁾، مما شكّل مراكز حضرية يتمحور حولها النشاط الثقافي والاقتصادي، وثغورا للتوسع عبر المتوسط إلى جنوب غرب أوروبا، وأسواقاً جامعة لأهل الريف، الذين يسعون للعمل فيها أو التبضع منها، الأمر الذي ساعد

(1) د. نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 26 و 27.

(2) مهدي ساتي صالح، "الفرانكفونية ومشكلة الثقافة في إفريقيا"، دراسات إفريقية، العدد 17، يونيو 1997، ص 85.

(3) د. محمود أحمد الديك، "واقع ومستقبل اللغة العربية في إفريقيا"، الجديد للعلوم الإنسانية، العدد 07، 2001، ص 65؛

ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، ص 209.

(4) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973، ص 48.

(5) عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار طالبي، المجموعة الثانية، الجزء الثالث، دمشق، دار اليقظة العربية، 1968، ص 483.

(6) د. نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 21؛

محمد حسن، المرجع السابق، 66 و 67.

على الانتشار الواسع للعربية⁽¹⁾، بالإضافة إلى الدفعة القوية التي أحدثها إرسال عشرة فقهاء من أعيان التابعين من قبل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلى المنطقة سنة 120 هـ .

وعلى الرغم من أهمية القرارات التي اتخذها الخليفة عبد الملك بن مروان باعتماد العربية لغة الدولة الرسمية، والتي التزم بها الفاتحون للمنطقة أمثال موسى بن نصير، عبد الله بن الحبحاب وحسان بن النعمان، بحيث جعلوا نشر العربية مهمة لا تقل شأنًا عن مهمة تثبيت الأمن والاستقرار؛ فإن التعريب لم يفرض فرضًا، بل حدث اختيارًا من الأهالي كما أسلفنا، قصد توثيق صلتهم بتعاليم دينهم وتعزيز مكانتهم ضمنه، ذلك أن العربية أصبحت بعد ذلك لغة الحضارة والتجارة، وذلك حتى في أكثر الأوقات انحسارًا لسلطان العرب على السياسة والإدارة كما سيأتي بيانه⁽²⁾.

فمن غير المنطقي أن يتحمس المجتمع الجزائري آنذاك لنشر العقيدة الجديدة في الأقطار الأخرى - من المغرب الأقصى إلى الأندلس - دون أن يكون قدوة في تعميقها وتعميمها داخله، وفي أوساط سكانه وأفراده، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه، فالعقيدة لا تقوى عليها سوى عقيدة أقوى منها إقناعًا - وتاريخ الحركات الاستعمارية حافل بالأمثلة على ذلك - كما أنه لم يثبت تاريخيًا أي صدامات بين القيادات المركزية للخلافة مع القيادات المحلية من السكان الأصليين، بل إن سمة تعاونهم كانت الثقة والمساواة⁽³⁾.

وفي مقابل ما للعربية من ارتباط وثيق بالدين الإسلامي الذي ساعد على انتشارها وحفظها من الزوال⁽⁴⁾، فإن البعض يشدد على ارتباطها به حتى بالنسبة للعرب غير المسلمين⁽⁵⁾، نحو ما صرح به أحد المفكرين المسيحيين بأنه: « لا يوجد عربي غير مسلم! فالإسلام هو تاريخنا، وهو بطولتنا وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون...إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم...ولئن كان عجبني شديدًا للمسلم الذي لا يحب العرب، فعجبني أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام! »⁽⁶⁾، وهو ما يؤكد آخر بقوله: « إن النصراني لا يمكنه أن يكون عربيًا إذا لم ينتم إلى حضارة الإسلام، فكيف يكون عربيًا ذلك النصراني الذي لا يتكلم لغة القرآن، ولا يطرب للموسيقى العربية المتحدرة من التجويد القرآني، ولا يهتز قلبه للشعر العربي، ولا تسحره العمارة الإسلامية... »⁽⁷⁾. ذلك أن الكنائس المسيحية في أنحاء البلاد العربية قد انتهت إلى الالتزام بالعربية الفصحى هي الأخرى، وجعلت منها لغة الصلوات والمواظع منذ عدة قرون، مثلما فعلت طائفة البروتستانت التي ترجمت الإنجيل إلى العربية، والأرثوذكسية التي جعلت من العربية لغة الطقوس المسيحية

(1) الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص 77 عن د. نازلي معوض أحمد، نفس المصدر.

(2) مدثر عبد الرحيم (معقب) في د. محمد المنجي الصيادي، المرجع السابق، ص 46.

(3) د. إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 163 و 164.

(4) أنور الجندي، اللغة العربية بين حمايتها ومعارضيتها، مطبعة الرسالة، ب. ت، ص 131.

(5) د. أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية " الحقائق والمغالطات "، ص 31.

(6) ميشال عفلق، في سبيل البعث، الجزء الثالث، بغداد، 1987، ص 68 عن د. أحمد بن نعمان، المصدر آنف الذكر.

(7) فكتور سحاب، جريدة النهار اللبنانية، يوم 06 يونيو 1982 عن د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 31 و 32.

جميعها⁽¹⁾، فضلا عن الجهود التي قدمها ولا زال يقدمها المسيحيون العرب وتفانيهم خدمة للعربية وحفاظا عليها⁽²⁾.

وكان الأمر ذاته بالنسبة لدول المغرب العربي، فقد اكتسبت العربية قداسة شبه دينية مثلما اكتسبته في المشرق، بحيث أصبح من الصعب التمييز بين العربي والمسلم في هذه البلاد، لمكانتها باعتبارها لغة القرآن، ونظرا لانعدام الأقليات غير المسلمة الناطقة بالعربية؛ عدا اليهود الذين تميزوا ولكنها خاصة تنم عنهم عند نطقهم بالعربية⁽³⁾.

كما أن تأثير العربية على البربر وانتشارها فيما بعد، كان وفقا لظاهرة الميثاقية الجنيالوجية المتبادلة، مثلما حدث من تناسب وتماثل بين النمط المعيشي لقبيلة زناتة وعرب الهلالية⁽⁴⁾، حيث تعربت بلاد المغرب بالكامل في بداية القرن الثاني عشر ميلادي، جراء اجتياح قبائل بني هلال وبني سليم، الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية، ليتوطنوا نهائيا بالمغرب العربي⁽⁵⁾.

رابعا : انتشار العربية في باقي البلاد الإفريقية :

عرف انتشار العربية في الأرياف المغاربية قفزة نوعية بحلول القرن الثالث عشر، بحيث ارتبط بانتشار المدارس والمؤسسات التعليمية، التي أصبحت تابعة لأشراف الرسمي من قبل الدولة، فكانت تستقطب القادمين من خارج الحاضرة⁽⁶⁾، وحتى من باقي الدول الإفريقية. ويظهر الزوايا في القرن الرابع عشر تمكنت العربية من اجتياح عدد كبير من المناطق الإفريقية، حيث لعبت الزوايا الدور الجوهرية في نشر تعاليم الدين الإسلامي وقواعد اللغة العربية، بكل يسر ودونما إجبار⁽⁷⁾.

ومثلما كان الإسلام الرافد الكبير للعربية في البلاد الإفريقية، كانت العربية الوسيلة الفعالة لنشره في تلك البلاد، لاسيما في دول غرب إفريقيا من نيجيريا حتى النيجر وتشاد ومالي والسنغال وساحل العاج، كما لعبت الدور نفسه في شرق إفريقيا كالصومال وأثيوبيا وأوغندا⁽⁸⁾.

وفجر الإسلام الإمكانات الإبداعية للشعوب الإفريقية في ظل عقيدته ولغته، فقد سادت الشمال الإفريقي قراءة "ورش"؛ الذي انتهت إليه رئاسة القراءات في القرآن الكريم، وفيه انتشرت مدارس الفقه

(1) ساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1985، ص 48 و49.

(2) د. أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق " في الجزائر والعالم العربي"، ص 121 - 125.

(3) د. عبد الكريم غلاب، " التعريب ودوره في حركات التحرر في المغرب العربي"، ندوة : التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، تونس، 23 - 26 نوفمبر 1981، ص 91.

(4) أبو عبد الله محمد الإدريسي، جزيرة العرب من نزعة المشتاق وملحق به ما جاء في روض الفرج وأنس المهج، تحقيق إبراهيم شوكة، بغداد، المجمع العلمي العراقي، 1971، ص 88 عن محمد حسن، المرجع السابق، ص 67.

(5) محمد حسن، المرجع السابق، ص 75.

(6) نفس المصدر، ص 77.

(7) د. محمود فوزي المناوي، في التعريب والتغريب، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 2005، ص 239.

(8) د. عبد الكريم غلاب، المصدر آنف الذكر، ص 90 و91.

المالكي، حتى قيل أن الإمام مالك ظل يحكم شمال إفريقيا من الحجاز قرونا طويلة - ولا يزال - بموطئه وتلاميذه، وعلى امتداده قامت إمارات إسلامية عبّرت بالإسلام حوض المتوسط شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، وفي ريعه ازدهرت مدن مراكز إسلامية وجامعات عريقة، عملت على بث العلوم والمعارف، وكذلك كان الحال في القرن الإفريقي، حتى ظن بعضهم أن الإسلام قد نشأ أصلا في هذا الجزء من القارة⁽¹⁾.

ولقد شهد عدة مؤرخين من غير العرب للدور الإسلامي العربي في البلاد الإفريقية⁽²⁾؛ فها هو Dean Stanly يقول: « لا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة إفريقيا الواسعة »، وفي نفس السياق يقول الكاتب الفرنسي Gouilly: « بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لأفريقيا السوداء.. وهو العصر الذهبي، ففي العصر الوسيط برزت الخصائص المميزة للحضارة الإفريقية الوطنية في تلك البلاد، وقامت حكومات ونظم متقدمة، ويمثل الإسلام القوة الدافعة المحركة التي خطت بالحياة الإنسانية في غرب إفريقيا نحو المعارف المختلفة من آداب وعلوم وفنون، كما أمدّها بوسائل المعرفة من علماء ومدارس وجامعات »، ويضيف Jean Louis Triaud: « إن الإسلام أعطى للأفارقة الفرصة والوسيلة كتابة تاريخهم، وإن للعرب الفضل في ربط شعوب الصحراء وبلاد السودان بشعوب البحر المتوسط »، وهو ذات الفضل الذي اعترف لهم به James Richard Son حيث قال: « إن أكبر عمل أسدوه إلى تلك الجهات، وأكثر من كل هذا أنهم أدخلوا ونشروا الإمام بالكتابة والقراءة ».

خامسا : الوضع اللغوي إبان الحكم العثماني :

مثملا لم تجد اللغة العربية صعوبة في الانتشار، فإنها ظلت هي لغة الدين والعلم والثقافة في الجزائر، وبقيت محافظة على مكانتها في كل شبر من أرضها، إلى أن انضوت هذه الأخيرة تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر، حيث انتشرت اللغة التركية في الدواوين الرسمية للدولة، فلم تنافس التركية العربية إلا في الإدارة⁽³⁾، دون أن يكون لها تأثير في الواقع الاجتماعي، بل إنّ العربية حافظت على مكانتها كلغة دين وعلم وثقافة، وبقيت كافة المؤسسات التعليمية العربية قائمة، وهذا نتيجة لكون الأتراك لم يعتبروا أنفسهم غزاة بل حماة للدين في هذا الثغر، مدركين لطبيعة السكان الذين لا يملكهم سوى الوازع الديني، الأمر الذي وفر لهم البقاء في الحواضر الكبرى من المناطق الساحلية في الجزائر مدة تقرب ثلاثة قرون، دون أدنى مقاومة تذكر من الأهالي⁽⁴⁾، ووفق حكم يكاد لا يربط البلاد بمركز الخلافة في الأستانة إلا الموافقة على تعيين الباشا⁽⁵⁾.

(1) ابن بطوطة، تحفة الأنظار، بيروت، 1968، ص 671 عن مهدي ساتي صالح، المرجع السابق، ص 86.

(2) د. محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ص 51 و 52.

(3) د. أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق " في الجزائر والعالم العربي"، ص 146.

(4) حمدان خوجة، المرأة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، ص 112 و 228.

(5) جوان خيلسي، الجزائر الثائرة ترجمة خيرى حماد، بيروت، دار الطليعة، 1961، ص 49 عن د. أحمد بن نعمان، المصدر

أنف الذكر، ص 145.

ولئن عرف المد اللغوي العربي انحسار جزئيا في ظل الحكم العثماني، نتيجة ركود حركة الاجتهاد الفقهي واللغوي الذي ساد الوطن العربي ككل في تلك الفترة، والذي أثر في المشرق خصوصا، للاعتقاد الشائع بالجمود العثماني والعزلة التي فرضها قسرا على تلك البلاد⁽¹⁾، فإنه لم يؤثر على المغرب العربي، نتيجة للتعايش السلمي الذي كان يسود الانتداب العثماني بالمنطقة، بل إن الأمر لم يثر البتة، على اعتبار أن هذا الأخير يمثل إحدى المرجعيات التي وجدت ارتياحا لها بالمنطقة، كونه يمثل الخلافة الإسلامية.

بل إن الأتراك العثمانيين بوصفهم حماة مستميتين عن ديار الإسلام والمسلمين - ما حدا بكثير من هؤلاء الاستنجد بهم والانضواء تحت رايتهم - كانوا قد تخلوا عبر القرون عن لغتهم التركية الخاصة، واتخذوا بدلا عنها اللغة العثمانية - التي كانت خليطا من التركية والعربية والفارسية - والتي كانت تكتب بحروف عربية، شأن كثير من لغات البلاد الإسلامية التي كانت قد تعربت بدرجات متفاوتة، إلى أن أوشكت الدولة العثمانية على الانهيار، راح دعاة القومية من الأتراك يعملون لتتريك أنفسهم ودولتهم وما تبقى تحت سيطرتهم من ولايات عربية كانت تسير بدورها في دروب القومية والعلمانية اللتان كانتا موضة العصر آنذاك⁽²⁾، لكنه وبالرغم من الجهود التي بذلها أتاتورك ومن نحى نحوه، فإنه لم يستطع تغيير حروف القرآن المنقوشة في صدور المسلمين الأتراك، ولا أن يفرض ترجمة له باللغة التركية، فلا يزال المجتمع التركي يترنل آيات الذكر بالعربية ويكتبها بحروفها، شأنه في ذلك شأن كافة المجتمعات الإسلامية غير العربية⁽³⁾.

ورغم ما أصاب اللغة العربية من ضعف واضمحلال في تلك الفترة نتيجة ما أصاب الوطن العربي من عوامل التفكك السياسي والجمود الفكري والاجتماعي والتخلف الثقافي، مما أطلق العنان للهجات المحلية - والتي كادت أن تودي باللغة إلى التفكك والتفزع مثلما حل باللغة اللاتينية بل إلى انقسام الأمة العربية ذاتها إلى أمم مختلفة - فإن وقوف القرآن الكريم بلغته الفصيحة الموحدة، حال دون حدوث ذلك التصور الوخيم⁽⁴⁾.

سادسا : الوضع اللغوي والتعليمي قبيل الاحتلال :

تشهد كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني أن الأتراك لم يكونوا يسيطرون على التعليم، بل إن هذا الأخير كان حرا ومنشرا إلى حد كبير، وأن كل جزائري تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة⁽⁵⁾، ذلك أن تعلم القراءة والكتابة مرتبط بالدين، فكان في كل البلاد الإسلامية بما

(1) د. نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 22.

(2) د. محمد المنجي الصيادي، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1980، ص 46؛ عبد القادر الكرمي، اللغة والتجديد، حلب، المطبعة العلمية، 1938، ص 55 عن د. أحمد بن نعمان، المصدر آنف الذكر، ص 124.

(3) د. أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص 124.

(4) ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، ص 207.

(5) د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث " بداية الاحتلال "، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1976، ص 159.

فيها شمال إفريقية تعليما قرآنيا، بشكل واسع الانتشار في المستوى الأول؛ ومتاحا أيضا في المرحلتين الثانوية والجامعية⁽¹⁾.

فقد كان للجزائر جامعاتها، وعلماءؤها، ومما ذكر المؤرخ مولود قاسم أن علماء وفلاسفة من الغرب كانوا يزورون تلك الجامعات في القرون الوسطى وبدء النهضة، وذكر منهم "رمون لول" صاحب الكتاب الشهير "الغن الكبير في المنطق" الذي درس في مدينة بجاية - إحدى أهم معاقل القبائل الكبرى - قواعد اللغة العربية وأصول المنطق، ويضيف أن تلك الجامعات حافظت على ازدهارها لغاية وشوك الاحتلال الفرنسي؛ الذي وجد آثارها حية⁽²⁾.

وهو ما أكدّه البعض⁽³⁾ نقلا عن المؤرخ الفرنسي Poulard بقوله: « كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن؛ في الفلسفة، والآداب، والعلوم، والطب، وقواعد اللغة، والقانون الإسلامي وعلم الفلك .. كل هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين، كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة لتعليم القضاء الشرعي والعلمي، وكان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين من خريجي تلك المعاهد .. » إلى أن يقول: « وقد أحدث وجود الفرنسيين اضطرابا بالغيا بين هؤلاء المفكرين والأدباء، واضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم، كما شتت شمل التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء العلم في السربعد أن كانوا يتعلمونه في حرية كاملة »⁽⁴⁾.

ويقرّ الباحثان الفرنسيان " فالسن استرهازي وأريان " سنة 1954 نفس الأمر بقولهما: « إن نسبة الأمية سنة 1830 كانت في الجزائر أقل منها في فرنسا بالنسبة لتعداد السكان، أي أنها كانت أعلى في فرنسا »، وهو ما ورد في تقارير جلسات مجلس الشيوخ الفرنسي آنذاك⁽⁵⁾.

ويذكر⁽⁶⁾ أن المعاهدات التي أبرمت بين الجزائريين وقادة الحملات العسكرية الفرنسية كانت باللغتين العربية والفرنسية، واستمرت العربية كلغة رسمية للبلاد في المناطق التابعة لدولة الأمير عبد القادر حتى السنة السابعة عشر بعد الاحتلال⁽¹⁾.

(1) د. والتر رودني، **أوروبا والتخلف في إفريقيا** ترجمة د. أحمد القصير ومراجعة د. إبراهيم عثمان، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1988، ص 351.

(2) مولود بلقاسم، **آنية وأصالة**، قسنطينة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، 1975، عن د. أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 146.

(3) يونس درمونة، **المغرب العربي في خطر**، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، 1956، ص 36.

(4) من أمثلة أولئك ما نقله عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت، منشورات المكتب التجاري، ب.ت، ص 185 عن ابن العنابي صاحب الكتاب الشهير "السعي المحمود في نظام الجنود" الذي يعتقد الكثير بأن محمد علي باشا قد استوحى منه ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لأخذ الجديد من علومها، فقد لقي هذا العالم حظوة كبيرة لدى حاكم مصر، الذي ولاه كرسي الإفتاء في الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة 1851.

(5) نقلا عن يونس درمونة، المرجع السابق، ص 36.

(6) حمدان خوجة، المرجع السابق، 265.

فقد واجه الفرنسيون المحتلون الأوائل ثقافة ولغة عربيتين في الجزائر؛ كانت قد استقرتا منذ قرون طويلة في كافة أنحاء البلاد⁽²⁾، وكان كافة السكان - باعتراف قادة الاحتلال - يعرفون الكتابة والقراءة، وفي كل قرية مدرستان على الأقل⁽³⁾، حيث يصرح Michel Habart أنه في عام 1830 كانت هناك 100 مدرسة في مدينة الجزائر، و85 مدرسة في قسنطينة، و50 مدرسة في تلمسان، كما يذكر وجود عشر جامعات عبر أرجاء التراب الجزائري، وهو الأمر الذي يعد من قبيل المسلم به لدى العديد من المؤرخين⁽⁴⁾. وانطلاقاً من هذه الشهادات وغيرها يمكننا أن ندحض الحجة الواهية التي يتعلل بها كل مشجع للحركات الاستعمارية؛ والتي مفادها أن أهم مبررات الاستعمار هو جلب الحضارة ورفع مستوى التعليم ومحاربة التخلف⁽⁵⁾، فالمستعمر لم يدخل التعليم إلى البلاد المحتلة، وإنما أدخل مجموعة جديدة من المؤسسات التعليمية الرسمية، التي استكملت بشكل جزئي المؤسسات التي كانت موجودة⁽⁶⁾، واتسمت بالبعد وانقطاع الصلة بالأهالي على خلاف التعليم الذي كان متواجداً والنابع أساساً من مؤسسات المجتمع.

خاتمة:

كان لزاماً قبل أي دراسة تتعلق باللغة العربية في الجزائر، التركيز على المدلولات الاجتماعية للعلاقة بين الجزائر واللغة العربية ضمن سياقها التاريخي، وقبل الانتقال إلى دراسة مدى تأثير الاستعمار على تلك العلاقة، وتبيان جهود المستعمر في محاربة اللغة العربية، بإثارة النزعة البربرية لضرب العربية من الداخل، ومحاولة فرض اللغة الفرنسية على المجتمع الجزائري، ركزنا في هذا المقام على التدليل على أمومة العربية ابتداءً، على خلاف ما يراد به تضليل الأجيال على اعتبار أنها لغة دخيلة وغريبة على هذا الوطن، فرضها غزو شرقي، وهو السياق الذي حاولت نتائج السياسة الاستعمارية لفرنسة الجزائر فرضه، والذي جوبه بتظافر كافة الجهود الوطنية، حفاظاً على اللغة العربية، وتكريساً لفكرة أمومتها.

(1) د. أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 148.

(2) نازلي معوض أحمد، "الشخصية العربية للجزائر بين الثقافة الفرنسية والسياسة الثقافية الجزائرية"، المستقبل العربي، السنة الثالثة، العدد السابع عشر، 1980، ص 93 عن د. نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 63.

(3) د. علي بن محمد، معركة المصير والهوية في المنظومة التعليمية: الصراع بين الأصالة والانسلاخ في المدرسة الجزائرية، الجزائر، دار الأمة، 2001، ص 81؛

مصطفى الأشرف، الجزائر أمة ومجتمع، دفاتر حرة 71-72، باريس، منشورات ماسبيرو، 1974، ص 188؛

(4) Seddik Taouti, La Formation des cadres pour le développement, Alger, OPU, n.d, p.35؛

وللتفصيل أكثر راجع: مصطفى الأشرف، Y.Turin، W.Marcais، في د. أحمد بن نعمان، حزب البعث الفرنسي !!، الجزائر، دار الأمة، 1998، ص 65 و 66.

(5) وسيوضح الأمر جلياً بمقارنة بسيطة بين نسبة الأمية عند دخول المستعمر، وعند خروجه بعد مكوث قارب القرن والنصف.

(6) د. والتر رودني، المرجع السابق، ص 149-151.